الشكـــل الخارجى للموشحة

— ٥ —

القفـــل

فى تعريف ابن سنـــاء الملك للقفـــل كما أوردناه فى أول هذا الكـــلام يقـــول : «والأقفال هى أجزاء مؤلفة يلزم أن يكون كل قفل منها متفقا مع بقيتها فى وزنها وقوافيها وعدد أجزائها» ، وهو تعريف غير كامل الافادة ، فالقفل ليس أكثر من جزء واحد خطى — وفى النادر يتكون من خطين متتاليين رأسيا — يتكون من فقرتين أو أكثر تتعدد فى فقراته القوافى أو تتساوى أو تتبادل ، فهو على غير نظام واضح لتسلسل قوافيه ، ولكن قوافى أول قفل يؤلف لابد أن تلتزم فى كل الأقفال التالية ، ومثلها عدد فقراته ، وعدد المقاطع اللغوية لكل فقرة منها .

ونرجع لأقفال الموشحات التى أوردناها ، فأول قفل فى موشح ابن رافع رأسه مكون من أربعة فقرات :

(١) الـــراح والـــرضاب (٢) ما فيهمـــا حـــرج

(٣) الا لـــكـــل بـــدع (٤) عن ديننـــا خـــرج

ونلاحظ أن قوافيها (ب. ج. ع. ج) ، وأن الفقرة (١) = (٢) = (٤) فى عدد المقاطع اللغوية بينما الفقرة (٣) أطول قليلا بالطبع — من كل منها ، وهذا النظام التزم حتى آخر الموشح .

وموشح الششترى قفله من فقرتين :

دارت عليـــك الأقـــداح بـــــروح وراح

الفقرة الاولى أطول من الثانية لكنهما متحدتان فى القافية ، وهكذا حتى آخر قفل فى الموشح .

وموشح المرينى يتكون من أربع فقرات :

(١) فى نغمـــة العـــود والسلافـــه (٢) والـــروض والنهر والنـــديم

(٣) أطـــال مـــن لامـــنى خلافـــه (٤) فـــظـــل فـــى نصحـــه مليـــم

مثـل موشح ابن رافـع رأسه مكون من خطين متـواليين لكن تتحد قـافية الفقرة (١) ، (٣) ثم (٢) ، (٤) ، والفقرات جميعا متساوية فى الطول ، ويسرى نفس النظام فى كل الأقفال .

وموشح ابن زهر الحفيد ثلاث فقرات :

يـاله قـد ضم بالغـصن ازراره وبـالحقف زنـاره

يتصاعد طول الفقرات وتتفق قافية الفقرة الثانية والثالثة ، لتختلفا مع قافية أصغر الفقرات : الاولى . وهو بالطبع نظام يطرد فى كل الموشح .

وأما قفل مثل دار الطراز :

(١) ذو اعـتـدال (٢) يعـزى الـى (٣) ذى نعمـة ثابت

(٤) فـى ظـلال (٥) تحت حـلى (٦) قطر الندى بايت

ونرى عمودية القوافى فى تآلف ، خطيتها (حركتها الأفقية) فى تخالف . ومع ذلك ، ولأن القفل جزء واحد خطى ، فان وضعه فى خطين يكون مراعاة للقوافى ، أما لو وضعناه فى خط واحد ، فيصير تبادل القوافى حيث يتساوى (١ ، ٤) ثم (٢ ، ٥) ثم (٣ ، ٦) ، أى يتفق كل رقم فرد مع رقم زوج فى تصاعد .

وعموما ، طبقا لابن سناء الملك ، فان عدد الأقفال قد يصل الى ثمانية أجزاء (فقرات) ، وقد يوجد فى النادر ما قفله تسعة أجزاء (فقرات) ، أو عشرة أجزء (فقرات) . ويقرر ابن سناء الملك حول هذين الرقمين أنه لم يجد منهما للمغاربة ما يثق فى نسبه .

ان اختبار الموشحات يثبت الصدق النسبى لابن سناء الملك . فالاقفال التى تصل الى أكثر من ٨ فقرات قليلة ، وغالبا ما تنسب للششترى ، وهو متصوف من أهل السماع ساح نحو المشرق ، فربما نسب اليه ما ليس له ، ولا سيما أن موشحاته تكسر قاعدة التزام كل الأقفال بعدد الفقرات أو القوافى ، بل انه كاد يصل – أو وصل – إلى نـوع أدبى جديد مزج فيـه بين خصائص الزجـل والموشحات وبين أفكار لا تنتمى للجنسين الأدبيين (١) .

وبعد هذا ننوه أن ابن سناء الملك أورد أمثلة لكل أنواع الأقفال حسب عدد فقراتها ، ما عدا الموشحات التى يتركب القفل فيها من سبع فقرات ، فقد وضع

---

(١) سليمان العطار ، الخيال والشعر فى تصوف الأندلس (راجع مادة الششترى) .

تحت هذا العنوان ما يلى «الموشح المعروف بالعروس ، وهو موشح ملحون ، واللحن لا يجوز استعماله فى شىء من ألفاظ الموشح الا فى الخرجة خاصة فلهذا لم نورد مثاله (١)» . وقد لاحظ الدكتور عبد العزيز الأهوانى أن صفى الدين الحلى قد أورد موشحا مشهورا (هكذا يصفه) لابن نغرله اسمه الموشح العروس، ويربطه بتراجيديا غرامية ، ويصفه بالتزنيم أى الجمع بين العامية والفصحى ، وأن هذا الموشح أقفاله ليست من سبع فقرات ، ومن ثم يثبت أنه ليس الموشح الذى عناه ابن سناء الملك ، ويحذرنا من الثقة المفرطة فى صفى الدين (٢) .

ونحن نتفق مع الدكتور عبد العزيز فى ذلك . ونظن أن هناك أسبابا أخرى لعدم الثقة فى تسمية صفى الدين لأحد موشحاته (العروس) ، وهو أن ابن سناء الملك يشير الى نوع أدبى يجمع بين العامية والفصحى ، يضم موشحات كثيرة ، ونفهم ذلك من قوله « .. لم نورد مثاله» . ثم أن موشح صفى الدين ليس مزنما كما يدعى بل هو فصيح ، وقد حكم عليه من واقع الخرجة ، وهذا التباس بين .

وهذا الأمر لا يعنينى الا بقدر ما يلفت النظر من أن عدد فقرات القفل قد تشير الى نوع أدبى بعينه داخل جنس الموشحات . وبحثت عبثا فيما بين يدى من موشحات لعلنا نجد قفلا ملحونا من سبع فقرات فلم نعثر الا على موشحتين معربتين لابن خاتمة الأنصارى والأقفال فيهما متحدة الأوزان مختلفة القوافى داخل كل موشح ، لكن فى الفقرات الست الاولى والسابعة موحدة فكأننا أمام موشح واحد . وابن سناء الملك كان قادرا على مصادرة نماذج الموشح العروس فى كتابه ، لكنه لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك مع من قدموا لنا مجموعات من الموشحات . وغياب مثل هذا الموشح سباعى فقرات القفل – شبه الكامل – يؤكد فكرة الظن بارتباطه بنوع محدد ومتميز من جنس التوشيح .

ودفعنى هذا الاستنتاج لمطاردة الموشحات ذات الأقفال المكونة من عدد فردى من الفقرات : (٣ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ، ١١ ، ١٣) . فالموشحات (١١ ، ١٣) تصوفية وتكسر قواعد التوشيح والزجل فى آن . وأما الموشحات (٣ ، ٥) لابد أن توجد فى تركيب عمودى من حيث القوافى أى أن : بالنسبة للأقفال ذات الثلاث فقرات

---

(١) دار الطراز ص ٢٧ .

(٢) عبد العزيز الأهوانى ، الزجل فى الاندلس ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ص ١١٤ ، والموشح المزعوم بـ (العروس) وقصته فى : صفى الدين الحلى ، العاطل الحالى والمرخص الغالى ، (تحقيق حسين نصار ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ١١ – ١٢ . والدكتور عبد العزيز يورد النص أيضا .

تكون فقرتان متحدتى القافية والثالثة مستقلة القـافية . ومعنى ذلك أن الفقرة (٢) قد تتفق مع (٣) .

(١) ⟵ أ (٢) ⟵ ب

(٣) ⟵ ب

أو (٢) مع (١)

(١) ⟵ (أ)

(٢) ⟵ (أ) (٣) ⟵ ب

أو (٣) مع (١)

(١) ⟵ أ (٢) ⟵ ب

(٣) ⟵ أ

أما الخماسية فهى نادرة (*) ونورد المثـل الذى وجدناه ، وهو لابن مالك (أحمد) : (الموشح أقرع يبدأ) : (١) .

بـــدر بـلا مـحـــاق تصبـو اليـه الـبـدور

فـالحسن ذو اشـتـلاق فـى خـــده يـنـيـــر

والـزهـــر ذو شـقـــاق قـــد زانـــه الـفـتـور

قـد نمقتـه لامـــه زادت غرامـا للغرام كـــل مـن أبـصـــر

يحميها رشق السهام مـن رشـأ أحـــور

وينـتهى :

أمـداحـكـم تسيـر تسرى مـع الـدجـون

وعـــزك اثـــيـــر فى سعـده المـكـيـن

فـغـنت الـطـيـور عـلى ذرى الـغصون

(*) عددها ستة من بين ٤٤٧ موشحة فى ديـوان الموشحات وكلها تقريبـا فى عصر مبكر ، راجع ديوان الموشحات جـ ١ ص ٩ و ٤٢ و ٣٨٠ و ٤١٢ ثم جـ ٢ ص ٣٧٠ و ٥٩٦ .

(١) ديوان الموشحات جـ ١ ص ٤٢ .

خصصت بالكرامة شرفت ما بين الأنام ذكركم أشهر
من الدرارى فى الظلام عندما تزهر

ونرى أيضا ميلها للتقفية العمودية الرأسية ، كما أنها موشحة مدحية .

أما باقى الموشحات ذات الأقفال الخماسية الفقرة فتخضع لنظام واحد فى التقفية ، ما عدا واحد (١) منها فقوافيه أفقية ، أى أن الفقرات الثلاثة الأولى موحدة القافية داخل كل مقطوعة ومتغيرة من مقطوعة الى أخرى (نفس أسلوب الأغصان) ، والفقرتان الأخيرتان متحدتا القافية داخل كل قفل وعلى طول الموشح. وهذا نظام يطرد عند الششترى فى أقفاله أحادية العدد (٥ – ١١ – ١٣ فقرة) . وهذا المثل ينفرد بكونه من عصر متأخر (القرن السابع) أما النماذج الخمسة الباقية فهى بين العصر الأموى والطوائف والمرابطين ، مما يجعل هذ النظام مرتبطا – ولو بشكل غامض – بنشأة الموشح . والثلاثى الفقرات أيضا يوجد منه نسبة ضئيلة نسبيا معظمها مبكر (٢) ، والقليل منها متأخر (٣) . وكلها تتبع نظام القوافى السابق الاشارة اليه ، وفى حالات متعددة تتساوى فقراتها الثلاثة فى القوافى . والآن نورد موشحا نموذجا لهذا القفل الثلاثى الفقرات : (لابن الفضل) (٤) .

عرج بالحمى واسأل بالكثيب
عنهم أينما

– ١ –

هذى الأربع
منهم بلقع
أين الأدمع

ضرجها دما وقم بالنحيب
نقم ماتما

---

(١) راجع مثالها الوحيد ، ديوان الموشحات جـ ٢ ص ٢٧٠ ، وهو للششترى المتصوف .
(٢) راجع ديوان الموشحات جـ ١ ص ٧٥ ، ٨٨ ، ١٥٠ ، ١٦٩ ، ١٨٢ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢١٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٣٢٦ ، ٣٧٠ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ثم جـ ٢ ٤٧٠ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٤٩٥ ، ٥٧٥ (مجهولة العصر ، والشواهد تشير الى قدمها ما عدا رقم ٤٧٨) .
(٣) راجع ديوان الموشحات جـ ٢ ص ١٤٦ ، ١٨٩ ، ٢٤٩ ، ٣٣٣ ، ٤٠٥ .
(٤) ديوان الموشحات جـ ٢ ص ١٤٦ .

- ٢ -

شاقتـنى البـروق
لـثـغـر بـــروق
فـمـن للـمشـوق
بـأن يـلـثـمـــا ومـن للـجـديـب
بـمـاء الـسـمـا

- ٣ -

لـم يـدر الـكـئـيـب
مـــن أيـــن أصـيـب
لـكـــن الـحـبـيـب
درى اذ رمـــى يـا عـيـنـى حبيـبى
مـوتـى انـتـمـا

- ٤ -

دهـرى فـى اغتـراب
وشـانـــى عـجـــاب
أظـمـا فـى الشبـاب
لـــوصـل الـــدمـى فـهـل فـى المشيـب
يـــزول الـــظـمـــا

- ٥ -

بـيـــن مـسـتـدام
وأخـشـى الـحـمـام
يـــارب الأنـــــام

تـدرى قـــدر مـا بـقـلب الـكـئيب

فـارحـم مغـرمـا

لا نملك الا ابداء اعجابنا بالروح الوجودية الحزينة حزنا انسانيا كونيا فى هذا الموشح ، مع أن ذلك – فى الوقت الحاضر – خروج عن الموضوع ، الذى نتناول فيه هذا النظام المتسق لقوافى الموشحات ذات الأقفال أحادية عدد الفقرات . وهذا يدفعنا لتأمل الأقفال الثنـائية عدد الفقرات فنجد أنها أيضا لها أنظمة فى التقفية . وكل هذا لم يشر اليه ابن سناء الملك أو من لحقه بعد من المحدثين ، وهو أمر يستحق أن تفرد له دراسة واسعة . لكننا نصل الى استنتاج هام يتلخص فى النقاط الآتية :

١ – أن ٩٥٪ من الموشحات ذات أقفال زوجية الفقرات ، ومعظمها متأخر الانتساب زمنيا .

٢ – أن الموشحات ذات الأقفال الفردية العدد لا تتجـاوز ٥٪ من مجموع العينة (ديوان الموشحات) ، ومنهـا حوالى ١٪ متأخر عـدد فقراته : ٧ – ١٣ ، أما الباقى فعدد فقراته من ٣ – ٧ (وليس لدينا من النموذج سباعى الفقرات المبكر سوى الموشح العروس الملحون ، الذى ذكره ابن سنـاء الملك) . وهذا يربط نشأة الموشح بالفقرات الفـردية فى الأقفال . فكأنما كان محاولة للتمرد على زوجية الأشطار فى الشعر العمودى (ولا يشاركه فى ذلك الا المخمسات التى أظن أنها نشأت فى وقت واتجاه يوازى ما حدث للموشحات فى نشأتها لكن هذه المخمسات كان وراءهـا ظرف تاريخى مشتـرك بين المشرق والانـدلس ، أما الموشحات فتختص بظرف انفردت به الاندلس (*) . كما أن الأقفال الفردية الفقرات (أكثر من ٧) ترتبط بالمرحلة قبل الأخيرة فى تطور الموشح . أما الاقفال السباعية ، ففيما يبدو أنها تمثل شيئا حميما فى الانتقال من مرحلة النشأة الى مرحلة النضج ، ومن مرحلة الزجل الى مرحلة الموشح (وبالعكس) .

(*) راجع خاتمة هذا البحث ، ثم قول ابن سعيد «جرت العادة عند المشارقة والمغاربة أن يعمدوا لشعر ولع أهل السماع بالغناء فيه فيخمسونه» ، المقتطف ص ٢٣٦ .